أجرى المقابلة: أنطوان شلحت وبلال ضاهر

الأستاذ الجامعي والمؤرخ المتخصص في شؤون الحركات القومية والفاشية

زئيف شتيرنهل: احتلال ١٩٦٧ جرح مفتوح أخلاقيًا وسياسيًا!

***المشروع الصهيوني كان في الأصل مشروعا لاحتلال البلاد وإسكانها باليهود، ولم يكن هناك خيار آخر، وليست لدي أي مشكلة أخلاقية إزاء هذا. المشكلة الأخلاقية عندي تبدأ من العام ١٩٤٩، الذي كان يجب أن توضع فيه نهاية للاحتلال بعد أن نجحت الصهيونية في تحقيق جميع أهدافها وفي تطبيقها ميدانيًا*.**

في ٢٥ أيلول ٢٠٠٨، تعرّض المؤرخ الإسرائيلي البروفسور زئيف شتيرنهل، إلى محاولة اغتيال على خلفية الأفكار السياسية التي يتبناها. وقد تمثلت ردة الفعل الأولية التي بدرت عنه في القول: «في حالة أن من قام بهذا العمل ليس مجنونا فردا، وإنما جهة تمثل تيارا سياسيا أو شعبيا، فإن هذه ستكون بداية انحلال الديمقراطية الإسرائيلية. إنّ مجرد تنفيذ هذا العمل يدل على هشاشة الديمقراطية الإسرائيلية، وعلى الحاجة إلى أن نتجنّد من أجل الدفاع عنها بإصرار وحزم».

وكانت تقديرات صادرة عن الشرطة الإسرائيلية قد أشارت إلى أن تنظيما يهوديا يمينيا متطرفًا، يدعى «جيش التحرير الرسمي»، هو الذي يقف وراء محاولة الاغتيال هذه، وإلى أن هذا التنظيم يعتزم أن يمسّ بشخصيات يسارية إسرائيلية أخرى على غرار شتيرنهل. وقد استندت تقديرات الشرطة هذه إلى بضعة أدلة عثرت عليها في بيت شتيرنهل في القدس، من بينها العبوة الناسفة التي انفجرت أمام باب البيت، والتي أسفرت عن إصابته بجروح، وتبين أن تركيبها يحتاج إلى خبرة، وأيضًا إلى تعقب الجناة له ومعرفة تحركاته، حيث أن الانفجار وقع لدى عودته من رحلة في خارج البلاد، إضافة إلى وجود مناشير قرب البيت تمنح جائزة بقيمة مليون ومئة ألف شيكل لـ «من يقتل ناشطا يساريا».

وتناولت الصحف الإسرائيلية محاولة اغتيال شتيرنهل على نطاق واسع. غير أن أغلبية المقالات والتحليلات، التي نُشرت مباشرة بعد وقوع الحادث، ظلت متواضعة للغاية في تناول التأثير السلبي المترتب على المشروع الاستيطاني وعلى تطرف المستوطنين على إسرائيل، والذي ينعكس في تزايد العنف وخرق القانون في المجتمع الإسرائيلي من جهة، وفي منع تقدم العملية السياسية من جهة أخرى.

وأوضح أحد ضباط الشرطة أن المعتدين «عملوا بصورة منظمة جدا، وهذا يدل بشكل أكيد على تصاعد نشاط اليمين المتطرف ضد الناشطين اليساريين». كما أشار إلى أن «الحديث يدور عن نشاط موجه، وزرع العبوة الناسفة لم يكن عملا عشوائيا». وأقر جهاز الأمن العام [شاباك] والشرطة بفشلهما، عندما أعلنا أنهما فوجئا من محاولة المسّ بشتيرنهل، وأنه لم تتوفر لديهما أية معلومات بشأن نشاط تنظيم يميني هدفه التعرّض لناشطين يساريين. وقد شددت الشرطة على أن «هذا الاعتداء لم يكن هدفه إخافة المعتدى عليه فحسب، وإنما هو أيضًا محاولة واضحة للتسبب بأذى له على الرغم من أن العبوة الناسفة كانت صغيرة».

عن جوهر «الديمقراطية الإسرائيلية»

في واقع الأمر تبدو الزاوية التي اختار شتيرنهل أن يتطرّق منها إلى ما تعرّض له [زاوية هشاشة الديمقراطية الإسرائيلية] هي الأكثر إثارة للاهتمام، حيث أن ما قاله ينم عن الجوهر الحقيقي لهذه الديمقراطية، والذي عادة ما يتم ستره بغلالة شفافة.

وقد سبق له نفسه [في سياق مقابلة مطولة أدلى بها، قبل تعرضه لمحاولة الاغتيال بفترة وجيزة، إلى مجلة «ديمقراطية» الإلكترونية] أن أبدى امتعاضه من كون هذه الديمقراطية رسمية/ شكلانية لا أكثر. وأشار إلى أنها تتحقق، من وجهة نظر كثيرين، فقط في اللحظة التي يتوفر فيها حق انتخابي وحسم بواسطة الأغلبية.

ولدى الاستعانة بما قاله في تلك المقابلة في الإمكان تحديد جوهر الديمقراطية الإسرائيلية ضمن العناوين الرئيسة التالية:

- هذه الديمقراطية الرسمية لا تشمل حقوق الإنسان. وهذه الحقوق جديدة تمامًا، أدخلت إلى النظام السياسي الإسرائيلي بواسطة المحكمة العليا، عبر ما درج على تسميته بـ«الصرامة القضائية». أمّا «وثيقة الاستقلال» فقد اعتبرت بمثابة وثيقة إعلانية ليس لها أي مغزى قانوني أو سياسي أو حتى أخلاقي. والأنكى من ذلك أن حقوق الإنسان تُعتبر في نظر مسؤولين كثيرين عائقاً أمام الدولة وأمام قدرة أدائها، كما لو أن هذه الحقوق تقوّض حقوق الدولة.
- إنّ حقوق الإنسان ليست جزءًا من مفهوم إسرائيل الديمقراطي. وكانت ثمة ضرورة لإدخالها من الباب الخلفي، ولذلك فإنها هشة للغاية، وبالتالي فهي ليست مضمونة إلى حد كبير. علاوة على ذلك فإن معارضي المحكمة العليا رأوا في ذلك هيمنة من جانب القضاة، الذين سرقوا حقوقا تخضع جوهريا للسلطة التشريعية. وإذا كانت هذه الأخيرة لا تعبأ بحقوق الإنسان فمن هم القضاة حتى يحلوا محل تلك السلطة؟! ولذا فهو يعتقد أن هذه واحدة من نقاط الضعف الأكثر أساسية في الديمقراطية الإسرائيلية.
- يعتقد المسؤولون الإسرائيليون أن الأمن أهم من الديمقراطية. وعلى الرغم من توكيده أن هذا صحيح أحياناً، إذ باستطاعتك أن تقول إن الحياة أهم من الديمقراطية، إلا أن ذلك يُعدّ نوعاً من المبررات والذرائع التي يمكن أن تستخدمها فقط في حالات متطرفة تماماً، غير أن اللجوء إليها يتم أيضًا في حالات ليست كذلك. لذا ثمة شعور بأنه عندما يمر المجتمع في وضع طارئ فإن الديمقراطية تغدو مجرد ترف. على سبيل المثال هناك من يعتقد أنه إذا ما توصلت إلى استنتاج بأن ثمة خطرا وجوديا يتهدد دولة إسرائيل فإن في إمكانك تعطيل السيرورات الديمقراطية الاعتيادية... بمعنى أنك لست ملزمًا بالسير أو التصرف بحسب القواعد المقبولة، وأن في استطاعتك تدوير الكثير من الزوايا. ووفقًا للثقافة السياسية السائدة يكفي أن تجري انتخابات وأن تكون هناك أحزاب وحرية تعبير، وفي اللحظة التي يؤخذ فيها حسم بواسطة الأغلبية ينتهي كل الموضوع في الواقع.
- تُفهم الديمقراطية في إسرائيل بالمعنى الأكثر رسمية الذي يمكن تصوره، أي من زاوية أو من منظور المساواة الشكلية. فما دام في إمكان كل إنسان التصويت، بمعنى وجود مساواة سياسية رسمية، فهذا يكفي. لا يوجد فهم مفاده أن الديمقراطية تستوجب ما هو أكثر من ذلك. ففي الديمقراطية لا تتجسد فقط الحقوق السياسية، وإنما أيضاً الحقوق الاجتماعية والاقتصادية. ومثل هذا الموقف يعتبر في إسرائيل غير ذي صلة بالديمقراطية. في الديمقراطية، هكذا يزعمون، أنت لست ملزمًا بتأمين حقوق اجتماعية. وقد بدأوا حتى باستخدام مصطلح «شفقة» وهو تعبير مستعار من الأميركيين. فالدولة «تشفق» على مواطنيها البائسين الذين يعانون من ضائقة لا لأنهم يستحقون مساعدة بحكم مبدأ حقوق الإنسان وإنما بحكم «منّة» وليس حقا. وبحسب هذا الفهم فإن ذلك ليس جزءا من حقوق الإنسان. الديمقراطية لا تستوجب شيئًا عدا التصويت في صندوق الاقتراع. وفي اللحظة التي يقوم فيها الإنسان بذلك فإنه يجسد مبادئ الديمقراطية. لكن هذا الفهم يعود كضربة مرتدة، وهو ما أدركته دول أوروبا مباشرة عقب الحرب العالمية الثانية. ولقد أدركت أن الديمقراطية لا يمكن أن تتحقق إلاّ إذا أضيفت

عناصر ومكونات اجتماعية. كان واضحاً للجميع أنه لم يعد في الإمكان الاكتفاء بالتعريف الرسمي للديمقراطية، فأضافوا حقوقاً اجتماعية، وأقاموا دولة الرفاه.

– في الثقافة السياسية السائدة يمثل الكنيست (السلطة التشريعية) عمليا ذراعًا للحكومة. لا توجد من ناحية عملية ثلاث سلطات وإنما سلطتان فقط: السلطوية، التي تنقسم إلى حكومة وكنيست، والسلطة القضائية. والكنيست لا يقوم بوظيفته كسلطة تشريعية، بل يشرع ما تريد الحكومة تشريعه، فضلاً عن أنه لا يراقب الحكومة. وفي الحقيقة فإن الكنيست هو جثة هامدة، أو جسم ميت، وهذه هي حاله دائمًا وأبدًا. فهو لا يستطيع استدعاء الوزراء أو كبار موظفي سلك الدولة، ليدلوا بالشهادة، كما هو متبع في الولايات المتحدة وأوروبا. كذلك فإن الكنيست لا يملك أدوات للحصول على معلومات مستقلة وهو يعيش على ما يقولونه له، في حين أن للكونغرس الأميركي أدوات ووسائل خاصة به، وحين يمثل رئيس هيئة الأركان الأميركية أمامه فإن أعضاء الكونغرس يستطيعون مساءلته والضغط عليه. الكنيست لا يستطيع الضغط على أحد، لأن أعضاء الكنيست لا يعرفون شيئًا عدا ما تزودهم السلطة (الحكومة) به. تعتبر هذه المشكلة مشكلة أساسية، فالكنيست يعمل في خدمة الحكومة، وليس أكثر من ذلك، وهذه مشكلة عويصة جدًا.

– في ضوء الضعف الذي تعانيه السلطة التشريعية، ثمة أهمية بالغة لوجود سلطة قضائية مستقلة وقوية، إذ لا بد من وجود جهة ما لكبح الحكومة. ومبدأ التوازن والكبح بين السلطات لا يطبق ببساطة. فالكنيست لا يكبح الحكومة ولا يوازنها. وإذا كان هناك من يمارس الكبح فهو الحكومة التي تكبح الكنيست وليس العكس. إن وجود سلطة قضائية قوية يعتبر أمراً حيويًا من أجل القيام بوظيفة الكبح، إذ ما هي الطريق المتاحة اليوم أمام مواطن متضرر، أو يعتقد أنه تضرر، جراء قرار إداري؟ إنها طريق المحكمة فقط أو أحدى الهيئات التطوعية، والتي تتوجه بدورها، في نهاية المطاف، إلى المحكمة أو الصحافة. وبما أن الصحافة تعمل بطريقة انتقائية للغاية، ففي النهاية يصل الجميع إلى نفس المكان: إلى المحكمة. ولذا أصبحت قيمة هذه المحكمة لا تقدر بثمن.

وقد حدّد شتيرنهل [من الحدّة] طروحاته هذه في وقت لاحق لدى تناوله أداء اليمين في ظل ولاية حكومة بنيامين نتنياهو الثانية [٢٠٠٩– ٢٠١٣]، في سياق مقالة مطولة تحت العنوان «اليمين سيقضي على الديمقراطية» [٢٠١١]، وأكد فيها أن هذا اليمين يعمل بذراعين: الذراع العنيفة (الصلبة)، وهي الذراع الاستيطانية، التي تحظى بحكم ذاتي إقليمي، وهي مزودة بالسلاح وتفرض سطوتها على الجيش والشرطة، والذراع المحترمة (الناعمة) التي تقوم بالعمل في الكنيست. وفي قراءته فإن العنف الفظ المعربد في المناطق الفلسطينية في كل يوم، والذي ينزلق أيضًا إلى الشارع الإسرائيلي، هو أقل خطرًا من نواح كثيرة من العمل البرلماني الهادئ والدؤوب الذي يفرغ تدريجيًا الديمقراطية الإسرائيلية من مضمونها.

وأضاف: إن تحويل غير اليهود إلى مواطنين ذوي مكانة أدنى هو الهدف الذي يتوق إليه أغلب اليمين الإسرائيلي، وباسم هذا التيار يعمل وزيرا العدل والخارجية في تلك الحكومة [يعقوب نئمان وأفيغدور ليبرمان]، بدعم من جانب كل القيادة البرلمانية لليمين، عدا رئيس الكنيست. وشدّد على أنه إذا منحت الدولة أفضلية قيمية لليهود، وهي أفضلية ستتدحرج بالضرورة إلى أفضلية سياسية، إن لم تكن اجتماعية واقتصادية، فإنها تكفّ عن أن تكون دولة ديمقراطية.

كما نوّه في سياق آخر بأن اليمين الإسرائيلي، العلماني والديني على حد سواء، يتحدّى الآن المفهوم الجوهري للديمقراطية الليبرالية، ويشمئز من مبادئها ويحتقر قواعد اللعبة فيها. وجوهر الثورة الدستورية لليمين هو ضمان التفوّق المطلق للهوية الإثنية والدينية للقبيلة، ولذا فإن الدولة لا تعتبر وسيلة لضمان مصلحة كل مواطنيها، بل إطار يسمح بممارسة تفوق اليهود على غير اليهود. وأكد أنه لا يجوز الخطأ في نوايا اليمين، ذلك بأن خطورة التشريعات المعادية للديمقراطية في الآونة الأخيرة تنبع من واقع أنها مدرجة في نطاق مفهوم كلي، وتخدم هدفًا واضحًا، وهي ليست سوى مرحلة أولى في المعركة الكبرى لتغيير طابع المجتمع والدولة في إسرائيل.

غير أن مساهمات شتيرنهل في تشخيص الواقع الإسرائيلي غير منحصرة في هذه المواقف فقط، وإنما أيضًا كامنة في الاستنتاجات الفكرية التي خلصت إليها أبحاثه وكتبه، ولا سيما كتابه «بناء أمة أو تصحيح مجتمع؟: القومية والاشتراكية في حركة العمل الإسرائيلية ١٩٠٤– ١٩٤٠» الذي صدر بالعبرية في العام ١٩٩٥، وصدر بالعربية عن المركز الفلسطيني للدراسات الإسرائيلية– مدار في العام ٢٠٠١ مترجمًا عن الانكليزية بعنوان «الأساطير المؤسسة لإسرائيل: القومية، الاشتراكية، وقيام الدولة اليهودية».

وقد حاولنا في هذه المقابلة الخاصة معه أن نستعيد تشخيصه لما كان، ولما هو كائن، ولما يمكن أن يكون، في ضوء

آخر المستجدات، وخاصة انتخابات ٢٠١٣، وتراجع قوة اليسار، وتغير مقاربة حزب العمل الذي كان منتميًا إليه في الماضي.

«هاجرت إلى البلاد مدفوعًا بهاجس المشاركة في بناء الدولة»

(*) سؤال: كيف ترغب في تقديم نفسك؟

شتيرنهل: «ولدت في العام ١٩٣٥ في بولندا، في غاليسيا، أي في المقاطعة النمساوية التي أصبحت جزءا من بولندا بعد الحرب العالمية الأولى. وكانت ولادتي في مدينة بشيميشل، وهي مدينة صغيرة تقع الآن عند الحدود بين بولندا وأوكرانيا، وقبل ذلك كانت هذه هي الحدود بين بولندا والاتحاد السوفياتي السابق. وكانت غاليسيا آنذاك مقاطعة نمساوية مليئة بالحياة الثقافية النمساوية واليهودية. فقد كان اليهود يشكلون قرابة ثلث السكان في هذه المناطق. وكانوا، في تلك الفترة، يمرون في خضم عملية انصهار سريعة في الثقافة البولندية. وكانت اللغة الأم لدى ثلث اليهود، في نهاية الثلاثينيات، هي اللغة البولندية. ليس اليديش وإنما البولندية، على الرغم من أن الجميع كانوا يتقنون اللغة اليديشية. كذلك فإن المثقفين، وبينهم أبناء عائلتي، كانوا يعرفون الألمانية. بعضهم درس في فيينا، لأن جدي، الذي كان جنديا نمساويا، نقل العائلة إلى فيينا إبان الحرب العالمية الأولى، وبعد الحرب عادوا إلى بشيميشل. وكنا هناك عندما نشبت الحرب العالمية الثانية، وكان عمري أربعة أعوام. كانت المدينة مقسمة، ويمر في وسطها نهر سان، الذي شكل الحدود بين القسم الذي احتله الألمان والقسم الذي احتله الروس. وكان حظنا جيدا لأننا كنا نسكن في القسم الشرقي، الذي كان تحت سيطرة الروس. ولم تكن الحياة جيدة خلال العامين الأولين، لكنها كانت محتملة. وتمثل الفارق بين ما جرى لليهود لدى الروس وما جرى لهم لدى الألمان في المعاناة داخل الكنيس. فقد حوّل الجيش الأحمر السوفياتي الكنيس إلى إسطبل لخيوله، بينما أحرق الألمان الكنيس وكل من تواجد داخله.

«خلال هذين العامين توفي جدي، وبعد ذلك توفي والدي أيضا، الذي كان جنديا بولنديا. وفي صيف العام ١٩٤١ احتل الألمان هذه المنطقة وأقاموا الغيتو فيها. وقد ذهبت أمي وشقيقتي إلى هناك اعتقادا منهما بأنه معسكر عمل. وكنت حينذاك قد بلغت السابعة من عمري، وأبقيتاني لدى خالتي الصغرى، والتي كان زوجها يعمل ممرضا في المستشفى، ويحمل تصريحا يسمح له بالدخول إلى الغيتو والخروج منه. وقد أخرجهما من الغيتو وانتقلنا جميعا إلى المدينة المجاورة، وكان اسمها بالبولندية فوف، وبالألمانية ليبر، وبالأوكرانية فيف. وأصبحت مدينة كبيرة في أوكرانيا الآن. ووضعت الحرب أوزارها، ونحن نعيش في هذه المدينة بصفتنا مسيحيين. وفي صيف العام ١٩٤٤ دخل الجيش الأحمر. وبالطبع كان هذا تحريرا بالنسبة إلينا. وقد تم إنقاذ الجميع. ومن هناك عدنا إلى بولندا. أمّا أنا فسافرت إلى فرنسا، إلى خالتي الثانية، التي عاد زوجها من [معسكر الإبادة النازي] أوشفيتز. وبقيت عندهم من العام ١٩٤٦ حتى العام ١٩٥١. وبالتأكيد أصبحت اللغة الفرنسية لدي في مستوى لغة أم تقريبا. في العام ١٩٥١ هاجرت إلى البلاد. ولم أكن قد بلغت السادسة عشرة حينها. وقد هاجرت مع هجرة الشبيبة. وحصلت على ورثة صغيرة، بفضل ظروف عائلية حدثت هنا. بعد ذلك ذهبت إلى الكيبوتس. وبمساعدة هذه الورثة الصغيرة تمكنت من إنهاء الدراسة الثانوية في حيفا. وفي العام ١٩٥٤ تجندت في صفوف الجيش الإسرائيلي».

(*) سؤال: هل كانت دوافع هجرتك إلى البلاد صهيونية؟

شتيرنهل: «في واقع الأمر، هاجرت لدوافع خاصة بي بشكل أساس. فقد أردت أن أشترك في هذا المشروع الكبير، وهو بناء دولة إسرائيل. كذلك فإنني لم أكترث لأن أغادر فرنسا، ذلك بأنه كانت لدي مشكلة في الهوية. فقد كنت فتى يهوديا، أدّى دور الفتى الكاثوليكي، وكان لدي إيمان كاثوليكي، وهذه هي الفترة الوحيدة في حياتي التي كنت فيها مؤمنا. وعندما لم أعد كاثوليكيا انتهى لدي الإيمان. وكنت حينها فتى كاثوليكيا، وذهبت إلى الكنيسة دائما، وما زلت أشعر بحرّيتي في الكنيسة حتى يومنا هذا.

«بعد أن أنهيت الدراسة الثانوية ذهبت إلى الجيش، وحصلت فيه على رتبة ضابط، وحاربت في العام ١٩٥٦ [العدوان الثلاثي على مصر]. بعد ذلك بدأت أدرس في الجامعة وحصلت على شهادتي البكالوريا والماجستير، وفي العام ١٩٦٤ أرسلوني لإكمال دراسة الدكتوراه في باريس. لكنني عدت إلى إسرائيل في العام ١٩٦٦ لأنهم كانوا بحاجة إليّ في العمل. بعد ذلك اندلعت حرب الأيام الستة [حرب حزيران في العام ١٩٦٧] واشتركت فيها. وعدت إلى باريس في العام ١٩٦٨، بعد أن تزوجت، وحصلت على الدكتوراه في العام ١٩٦٩. ومنذ ذلك الحين أعمل في الجامعة، وقضيت كل حياتي، منذ أن أصبحت بالغا، في الجامعة العبرية. كما أنني عملت في العديد من الجامعات في شتى أنحاء العالم. كانت لدي مسيرة أكاديمية عادية. لكنني مضطر إلى القول، من دون تواضع، بأني ألّفت كتبا تمت ترجمتها إلى ثماني لغات».

(*) سؤال: وكان اختصاصك في موضوعي القومية والفاشية.

النكبة: فلسطينيون خارج المكان.

شتيرنهل: «بالضبط. لقد تخصصت في القومية والفاشية وفي ما أسميه العداء للتنوير. وكان هذا موضوع الكتاب الأخير الذي ألّفته. إنه كتاب كبير يحتوي على ٥٠٠ صفحة، وصدر باللغتين الانكليزية والفرنسية. وصدرت منه أخيرًا طبعة جديدة وموسعة وتحتوي على قرابة ألف صفحة. وقبل بضعة أسابيع أصدرت في فرنسا كتابا، وهو موجود بالعبرية، بعنوان «لا يمين ولا يسار» وصدر هنا عن دار النشر عام عوفيد. وهذه الطبعة الرابعة، وأعتقد أنها الأخيرة أيضا. فأنا لا أريد أن تصدر طبعة جديدة بعد عشرة أعوام. وعلى الرغم من أن عمر هذا الكتاب ٣٠ عاما، لكن يتم بيعه بصورة جيدة. هذه هي مسيرتي الأكاديمية، وقد رافقتها بطبيعة الحال أسفار كثيرة، وخاصة إلى الولايات المتحدة. كذلك عملت في جامعة أكسفورد، وقضيت عامين في باريس أيضا بعد أن حصلت على الدكتوراه. وقد اندلعت حرب يوم الغفران [حرب تشرين الأول/ أكتوبر في العام ١٩٧٣] عندما كنت في أكسفورد. واشتركت في الحرب وكنت حينذاك ضابط العمليات في لواء المدرعات. وعدت بعدها إلى أكسفورد. كذلك حصلت على جائزة إسرائيل في العام ٢٠٠٨، وبعدها وضعوا قنبلة عند باب منزلي هنا. ثم انتخبت عضوا في الأكاديمية الوطنية للعلوم».

المجتمع الاشتراكي الذي حلمت به لم يكن قائمًا بتاتًا

(*) سؤال: قرأنا مقولة لك تتعلق بحرب العام ١٩٤٨ وعلاقة ذلك بهجرتك إلى إسرائيل في العام ١٩٥١، قلت فيها ما يلي «إن حرب الاستقلال ألهبت مخيلتي. وقراري الهجرة إلى إسرائيل كان قرارا شخصيا، وجاء [بتأثير] من تاريخ عائلتي، ومن الرغبة في بناء الدولة اليهودية أيضا». لكن في الوقت نفسه قلت في مكان آخر إن ما سمعته وما رووه لك عن إسرائيل قبيل هجرتك، كان مختلفا عن الواقع الذي وجدته في إسرائيل، إذ قالوا لك إن هذه دولة اشتراكية، لكنك وجدت واقعا مختلفا.

شتيرنهل: «حسنا، إنه أمر مثير جدا. هذا صحيح، لقد ألهبت حرب الاستقلال [١٩٤٨] مخيلتي، فتاريخ العائلة كان صهيونيا في بولندا. وكانت شقيقتي عضوا في حركة شبيبة [صهيونية]. لكن كانت هذه عائلة صهيونية ومنصهرة في الحياة الثقافية. وكان هذان الأمران يسيران معا، لأن اليهود الحريديم والمتدينين لم يعتبروا صالحين [في بولندا]، بينما كان اليهود العلمانيون صالحين في نظر البولنديين من الناحية الثقافية. وقد وُلدت حركة هشومير هتسعير في غاليسيا، وقادتها، أمثال مئير يعاري ويعقوب حزان، جاؤوا من غاليسيا. ولقد كانت غاليسيا مركزا كبيرا. ومارتين بوبر جاء منها. عائلتي كانت صهيونية، وهذا ألهب مخيلتي. وحملت كل هذا معي عندما جئت إلى هنا. هذا الاقتباس صحيح».

(*) سؤال: لكن هل وجدت في إسرائيل مجتمعا مختلفا عن ذاك الذي حدثوك عنه قبل هجرتك؟

شتيرنهل: «هذا الجزء من السؤال، ومن المقولة السالفة، يشكل اختزالاً لسيرورة طويلة جدا. فأنا لم أدرك ذلك مرة واحدة. لقد عرفت، قبل أن أهاجر، أن هذه دولة اشتراكية، دولة الكيبوتسات والموشافيم. ورويدا رويدا بدأت أتساءل، ولقد استغرقني هذا وقتا طويلا: ماذا حصل لهذه الدولة الاشتراكية؟ وكان هذا التساؤل بمثابة سبب وجيه لكي أستوضح، وأشرع في دراسة وبحث الأمور. وكتابي حول إسرائيل [صدر عن المركز الفلسطيني للدراسات الإسرائيلية– مدار في العام ٢٠٠١ بعنوان «الأساطير المؤسسة لإسرائيل– القومية، الاشتراكية، وقيام الدولة اليهودية»، بترجمة عن الانكليزية أنجزها الروائي الراحل عزت الغزاوي] هو النتيجة الفعلية لهذه التساؤلات والبحث. لقد اتضح لي أن الاشتراكية كانت مسألة ثانوية بالنسبة إلى القومية، وكانت مجرّد وسيلة تجنيد لغرض بناء الدولة. هكذا رأى ذلك دافيد بن غوريون وبيرل كتسنلسون وحزب مباي، منذ الثلاثينيات، وقبل ذلك أَحْدوت هَعَفوداه. وهم حاولوا فعلا المضي قدما باتجاه الاشتراكية. لقد أرادوا الحفاظ على نوع من الاتزان، لكنهم ساروا خلف مباي في نهاية الأمر. وقد قال بن غوريون مرة، لمئير يعاري ويعقوب حزان، في الثلاثينيات: 'أنتم تتحدثون مثل اليسار وتتصرفون مثل مباي'. فقد تعين عليهم الحصول على الميزانيات من الوكالة اليهودية. فكيف أقيمت الكيبوتسات هنا؟ لقد أقيمت من ميزانيات

وقد توصلت إلى الاستنتاج بأن هذه الاشتراكية لم تكن قائمة بتاتًا. لقد كانت هنا وهناك بعض التعاونيات في المدينة، لكن خارج الكيبوتس، عمليا، كان المجتمع اليهودي يعيش كمجتمع برجوازي جدا. وقد كانت تل أبيب مدينة برجوازية جدا. ولم تكن الفجوات الاجتماعية كما هي عليه اليوم، وكانت أصغر مما كانت في أوروبا. وكان هذا مجتمعا مؤلفا من المهاجرين. والبلاد كلها كانت فقيرة جدا. لكن النظام الاقتصادي في أرض إسرائيل، قبل قيام الدولة، كان نظاما اقتصاديا ليبراليا.

منحتها الوكالة اليهودية. وعندها، بدأت تتضح لي الأسئلة أولا ثم الأجوبة. وعمليا، فإن هذا المجتمع الاشتراكي الذي حلمنا به لم يكن موجودا هنا. وعندما طرحت هذه الأسئلة، هنا وهناك، كان الجواب غالبا أن الهجرات [اليهودية] الجديدة دمرت وغيرت وجه الييشوف، كما كان في فترة ما قبل قيام الدولة. ولم يرقني هذا الجواب. وأردت أن أعرف ما الذي حدث. وأين اختفت هذه الاشتراكية. وقد توصلت إلى الاستنتاج بأن هذه الاشتراكية لم تكن قائمة بتاتًا. لقد كانت هنا وهناك بعض التعاونيات في المدينة، لكن خارج الكيبوتس، عمليا، كان المجتمع اليهودي يعيش كمجتمع برجوازي جدا. وقد كانت تل أبيب مدينة برجوازية جدا. ولم تكن الفجوات الاجتماعية كما هي عليه اليوم، وكانت أصغر مما كانت في أوروبا. وكان هذا مجتمعا مؤلفا من المهاجرين. والبلاد كلها كانت فقيرة جدا. لكن النظام الاقتصادي في أرض إسرائيل، قبل قيام الدولة، كان نظاما اقتصاديا ليبراليا. وقد بنى الحكم الانتدابي [البريطاني] الاقتصاد الإسرائيلي كاقتصاد مفتوح وتوجد فيه حركة حرة للأموال والأفراد والبضائع. وقد تغيرت الأمور فقط في نهاية الحرب العالمية الثانية، وتم فرض قيود على حركة الأموال. فقد تغير العالم فجأة. لكن بشكل عام كان هذا مجتمعا برجوازيا عاديا. وهذا ما أبينه في الكتاب، والكثيرون من أصدقائي لم يحبوا استنتاجاتي. لكن ليس ثمة ما يمكن أن أفعله، فأنا لا أتلقى راتبا من أجل أن يحبوني، أو من أجل أن أكتب ما يتماشى مع المُسَلمات».

(*) سؤال: ما هي الأفكار التي اطلعت عليها في فرنسا قبل هجرتك وتعتقد أنها أثرت فيك، هل كانت الأفكار الاشتراكية أم الصهيونية؟

شتيرنهل: «لقد أدّت هذه الفترة دورا هائل الأهمية في حياتي، وأستطيع القول إنها بلورتها حتى يومنا هذا. ماذا اكتشفت؟ عليّ أن ألفت النظر هنا إلى أن الحديث يدور على فتى في الحادية عشرة والنصف من عمره، عندما جئت إلى فرنسا، وأنه عايش النازية والستالينية. إن الأمر الأول هو أنه جاء إلى مكان توجد فيه حرية. وقيم الحرية، والديمقراطية، وحرية التعبير عن الرأي، والعلمانية، تحتل مكانة مهمة للغاية في فرنسا. الأمر الثاني، أنه بالنسبة إليّ في المجتمع العلماني، وهذا يسري حتى الآن، لا وجود لله في المدرسة الحكومية التي توجد فيها أغلبية كاثوليكية، وبروتستانت، وعدد قليل جدا من اليهود، كما كانت الحال في تلك الفترة في جنوب شرقي فرنسا. وقد تزايد عدد اليهود بفضل الذين جاؤوا إليها من الجزائر بعد العام ١٩٥٨ . وقبل حرب الجزائر كان عدد اليهود في فرنسا قليلا جدا. إذن في المدارس لم يكن الله حاضرا، ولا وجود للكتب المقدسة ولا للإيمان الديني. لا شيء من هذا كله. وقد كان هذا الوضع بالنسبة إليّ شيئًا ما هائل الأهمية. والأمر الثالث، هو أنه في تلك الفترة، ١٩٤٦ – ١٩٤٨ ، تم بناء دولة الرفاه في فرنسا. وكانت هناك مظاهرات وإضرابات، وكان اليسار قويا في فرنسا وإيطاليا، وفي انكلترا أيضا، وتم تشكيل حكومة حزب العمال حينها. وقد خرج اليسار في أوروبا الغربية من الحرب ليس من أجل العودة إلى الوضع الذي كان قبلها، وإنما من أجل بناء شيء ما مغاير كليًا. وأنا كنت شاهدًا على هذا كله، وكان له تأثير هائل عليّ، لا شك في ذلك».

(*) سؤال: إذن كيف نشأت لديك العلاقة بين هذه الأفكار والفكرة الصهيونية؟

شتيرنهل: «نشأت من خلال أمرين. الأمر الأول، هو أنه بعد ما مرّ على اليهود فإنهم يستحقون دولة خاصة بهم. والأمر الثاني، هو أن هذه الدولة يجب أن تكون مغايرة، أي دولة جيدة، بحيث يكون فيها مجتمع مبني على المساواة والعدالة الاجتماعية. هكذا كان جوهر العلاقة الأساسية، في عقلي، بين الصهيونية والاشتراكية، الاشتراكية الديمقراطية».

(*) سؤال: كان هناك شخصيات صهيونية بين المثقفين اليهود تحدثت عن موضوع إقامة هذه الدولة، وكيف يجب التعامل مع سكان البلاد الأصلانيين، العرب. وقد ذكرت مارتن بوبر، الذي

كان عضوا في «بريت شالوم» (ميثاق السلام)، وكان بينهم رئيس الجامعة العبرية، يهودا ماغنس، الذي تحدث عن الدولة الثنائية القومية. هل اطلعت على أفكار هؤلاء؟

شتيرنهل: «لقد سمعت عن «بريت شالوم». ووصلت إلى الجامعة العبرية في العام ١٩٥٧. وشاركت في احتفالات ذكرى ميلاد مارتن بوبر التي جرت في المكان الذي كان يسكنه في حي الطالبية. وتواجد هناك جميع أولئك الذين كانوا نشطين. وكان ماغنس قد توفي قبل ذلك بعدة سنوات. لكن الجميع تحدث عن ماغنس. وقد اطلعت على كل هذا إبان حدوثه، إلا أن هذا لم يؤد دورا لدي من الناحية العاطفية. لقد جئت من اليسار الصهيوني الصرف، والكيبوتس كان الأمر المثالي في نظري».

(*) سؤال: لماذا لم تبق في الكيبوتس إذن؟

شتيرنهل: «لم أبق في الكيبوتس لأنه لم يتم استيعابي جيدا فيه. غير أن المُثل التي سعى لها الكيبوتس كانت المساواة، التنظيم المهني القوي، الاهتمام بالضعفاء، صندوق المرضى، وما إلى ذلك».

بداية الاهتمام بالمسألة العربية

(*) سؤال: لكن ما ذكرته بشأن الكيبوتس كان لليهود فقط؟

شتيرنهل: «صحيح، كل هذا تم في إطار الاهتمام باليهود. فالمسألة العربية لم تكن تهمني حتى بداية الستينيات. كيف بدأت أهتم بذلك؟ من خلال الحكم العسكري [الذي فرضته إسرائيل على المواطنين العرب خلال الأعوام ١٩٤٨– ١٩٦٦]. كان لدي أستاذ، ربما سمعتما به، اسمه يهوشواع أريئيلي. وهو باحث في التاريخ الأميركي. وكان شخصا غير عادي، وانكشفت على المسألة العربية لديه. لقد تساءلت، كيف يمكن احتجاز ١٥ بالمئة من السكان تحت وطأة حكم عسكري؟ ومن هنا بدأ اهتمامي بالعرب. وبعد ذلك جاءت حرب الأيام الستة، وعندها تحول كل هذا الموضوع إلى موضوع مركزي في الجدل العام وفي وعينا السياسي. وهذا الأمر كان حاسما».

(*) سؤال: تحدثت في مقال لك نشر في كتاب بعنوان «الوضع الآن»، من إعداد الكاتب الصحافي الإسرائيلي غدعون سامت، عن نقطة مهمة جدا من وجهة نظرك، وهي أنه في العام ١٩٤٨، وخاصة بعد اتفاقيات الهدنة في العام ١٩٤٩، كانت هناك فرصة سانحة لإغلاق حدود الدولة اليهودية، لكن قادة إسرائيل في حينه فضلوا إبقاءها مفتوحة، وأن هذا هو ما أدى إلى حرب العام ١٩٦٧.

شتيرنهل: «نعم. ما كان ينبغي علينا أن نفعله في العام ١٩٤٩

١٩٦٧: جيش الاحتلال في القدس.

هو أن نقول لأنفسنا إن هذه هي نقطة النهاية لمشروع بناء الدولة. كما كان ينبغي أن نقول، باستقامة، إن ما فعلناه حتى العام ١٩٤٩، والثمن الذي دفعه العرب، إذ أنهم دفعوا ثمنا باهظًا، كان ضروريا، ولذلك فإنه كان عادلا. كان هذا ضروريا بالنسبة إلينا، وكل ما جاء بعد ذلك لم يكن ضروريا، وليس عادلا، ولذلك فإنه ليس شرعيا. وأنا أرى الأمور على هذا النحو حتى يومنا هذا. كان اليهود بحاجة إلى قطعة أرض، كي يضعوا فيها الأغلبية، ويبنوا فوقها سقفا. وقد بدأت المأساة اليهودية الأوروبية تتطور في نهاية القرن التاسع عشر. وذهبت الأغلبية الساحقة، ٩٦ بالمئة أو حتى ٩٨ بالمئة، من اليهود إلى أميركا، إذ لم يتمكنوا من الوصول إلى هنا. وحتى لو تمكنوا من ذلك، من كان سيستوعبهم هنا؟ وهؤلاء الذين وصلوا إلى هنا، جاؤوا من أجل شراء دولة للشعب اليهودي، وهم لم يخفوا أبدا هذا الأمر. كما أنه ليس صحيحا أيضا القول إنهم لم يروا المسألة العربية. فقد كانوا يعرفون أنه يوجد عرب هنا، وكانوا يعرفون أن العرب لا يريدونهم. ولم تكن لديهم ادعاءات. وبن غوريون كان نزيها، وهو لم يعتقد أنه يجب على العرب أن يستقبلونا بأذرع مفتوحة، وإنما اعتقد أنه لا ينبغي أن نأخذ ما يريده العرب في الحسبان. وتحفظ بيرل كتسنلسون من ذلك، ولكن عندما ظهرت قضية أراضي مرج بن عامر، أي عندما اشترت الوكالة اليهودية المرج، تمت إقامة كيبوتسات مِزراع ومِرحافيا وكيبوتسات 'هشومير هتسعير' مثل مِشمار هعيمق وغيره».

(*) سؤال: لقد اشتروا هذه الأراضي من عائلة اقطاعية لبنانية، هي عائلة سرسق.

شتيرنهل: «هذه هي النقطة بالضبط. لقد اشتروا الأرض من الأفندي الذي يسكن في بيروت. وهذه نقطة مثيرة، وقد تحدثت عنها قبل فترة قصيرة. لقد سألوا بيرل كتسنلسون حول هذا الموضوع، لأنه كانت هناك مشكلة الفلاحين الذين سكنوا تلك

الأراضي، ونحن يساريون رغم كل شيء، اشتراكيون، نؤمن بشعار 'أخوة الشعوب'، فماذا علينا أن نفعل بهؤلاء السكان؟ وكان القرار أنه يجب أن ننقلهم من هناك لأن اليهود يريدون البناء في هذه الأراضي. فأين العقلانية والعدالة الأخلاقية إذن؟ عندها قال كتسنلسون إنه كأفراد يحق لهؤلاء السكان أن يحصلوا على تعويض، وكجماعة فإنهم لا يملكون حقا، وبالإمكان أن يسكنوا في مكان آخر. لا يوجد لديهم حق جماعي في الملكية على البلاد. البلاد لنا. بن غوريون ما كان سيتحدث بهذا الشكل، وما كان سيتلوى بصياغات ملتوية كهذه. وقد قال في بداية العشرينيات: جئنا لكي نحتل البلاد. هكذا كان معنى أقواله. نحن نقف أمام جدار حديدي وعلينا أن نحطمه. كتسنلسون كان يلتف على الأمور، لكن في الواقع كليهما قالا الأمر نفسه: الملكية على البلاد... البلاد لنا. ويجب احتلالها».

(*) سؤال: هل تعتقد إذن أن الحركة الصهيونية هي حركة احتلال، وأن المشروع الصهيوني هو مشروع احتلال؟

شتيرنهل: «لقد كان المشروع الصهيوني في الأصل مشروعا لاحتلال البلاد وإسكانها باليهود، وكانت الأمور على هذا الشكل لأنه لم يكن هناك خيار آخر. وأنا لا توجد لدي أية مشكلة أخلاقية إزاء هذا. المشكلة الأخلاقية لدي تبدأ من العام ١٩٤٩. في هذا العام كان يجب أن توضع نهاية للاحتلال، ذلك بأن جميع أهداف الصهيونية قد تحققت وتم تطبيقها، ولا يوجد أي سبب كي نتحرك ولو مليمترا واحدا آخر. لذا أنا ضد المستوطنات التي أقيمت بعد العام ١٩٦٧، لأن هذا لم يكن ضروريا قطّ. حتى العام ١٩٤٩ نفذنا ما هو ضروري وحيوي. وحرب الاستقلال بالنسبة إلينا كانت حربًا على الوجود، أو الفناء لو أننا خسرنا تلك الحرب. ولذا توجب علينا أن ننتصر في هذه الحرب. والعرب دفعوا ثمنا باهظًا...».

الاستيطان وراء الخط الأخضر غير شرعي ويجب إقامة دولة فلسطينية مستقلة

(*) سؤال: الإنسان الفلسطيني سيقول لك «ما ننبي أنك تعرضت إلى كارثة ومحرقة، لتأتي وتحتل بلادي»؟.

شتيرنهل: «نعم، أعلم ذلك. سيقول ماذا تريد مني، وهل أنا مذنب في هذا؟ وأنا سأقول له: أنت غير مذنب على الإطلاق في هذا. ولا أريد منك شيئًا، وإنما أريد قطعة أرض وحسب. وكل هذا يقودني قدما، لكن إلى ماذا؟ إلى أنه لا يجوز الاستيطان وراء الخط الأخضر، وأن القدس العربية يجب أن تكون عربية، فليس لدينا ما نبحث عنه في القدس الشرقية، وأن العرب الفلسطينيين– لأن العرب الإسرائيليين هم مواطنون إسرائيليون– يستحقون الحقوق نفسها التي باسمها أقمنا دولة اليهود، وفي مقدمها الحق في الحرية والاستقلال والحكم الذاتي والكرامة. إن هذه الحقوق هي حقوق عالمية، ولذا فإنها تنطبق على جميع البشر، وفي أي مكان في العالم. إذا كان لدي الحق في الحرية والاستقلال والحكم الذاتي، فإن للفلسطيني أيضا حقوقًا كهذه. هذه هي المبادئ التي توجهني حتى الآن من الناحية الفكرية. ولم يتغير شيء. يحق لنا أن نقيم دولة خاصة بنا، ويحق للفلسطينيين دولة خاصة بهم.

«وقد كنت أحمل هذه الأفكار في فترة غولدا مئير وشمعون بيريس، التي كان لا يجوز فيها الحديث عن مصطلحات مثل دولة فلسطينية وشعب فلسطيني، لأنهما كانا يعتقدان أنه إذا كان هناك شعب فلسطيني فإن لديه حقوقا في البلاد. ولكي لا يكون لدى أي كان، باستثنائنا، حق على البلاد فإن ثمة أهمية في ألا يكون هناك شعب فلسطيني، وإنما أن يكون هناك عرب أرض إسرائيل فقط. وفي العام ١٩٧٧، بعد الانقلاب [وصول حزب الليكود إلى سدّة الحكم في إسرائيل لأول مرة منذ قيام الدولة]، أقمنا حلقة باسم 'حلقة ٧٧'، وكانت هذه حلقة داخل حزب العمل، وقد تحدثنا من خلالها عن هذه الأمور. وأحاول بين حين وآخر أن أعيد ترتيب أوراقي، وقد تعثرت مؤخرا بملفين يتعلقان بـ 'حلقة ٧٧'، يحتويان على أوراق كتبناها حينذاك، ولا ينبغي تعديل أي شيء فيها، وإنما تطبيقها وحسب. وبالمناسبة فإنه من خلال هذه الحلقة، التي حاربت من أجل هذه الأمور، ولم نكن ندرك أبعاد ما نفعله في ذلك الوقت، أوجدنا شرعية للتحدث عن أمور كان يحظر التحدث حولها. وقد بقيت هذه الحلقة ناشطة حتى العام ١٩٨٢، وتم حلها عندما شن أريئيل شارون ورفائيل إيتان ومناحيم بيغن حرب لبنان الأولى، وكنا نعلم أن هدف هذه الحرب هو تحطيم منظمة التحرير الفلسطينية، أي تحطيم الحركة الوطنية الفلسطينية. وقد عارضنا هذه الحرب، على الرغم من أنني اشتركت فيها. فقد تم تجنيدي في الساعة الواحدة ليلا، وارتديت لباسي العسكري ووضعت الرتب وخرجت إلى الحرب. كنت ضمن الفيلق الشمالي، ولم نر تقريبا مخيمات اللاجئين، إذ كنا منشغلين مع السوريين. لكن أيقنا أن هذه الحرب كانت حماقة. وأنا، كشخص بحث منذ بداية طريقه الأكاديمية في موضوع القومية، أدركت أن هذه [منظمة التحرير] هي حركة قومية مثل الحركات القومية الوطنية الأخرى، وبصفتها كذلك ليس بالإمكان تحطيمها من خلال إرسال دبابات لمحاربتها».

(*) سؤال: أنت خبير كبير في مجال القومية. هل تعتقد أن الحركة الصهيونية، التي يدعي اليهود أنها حركة قومية، هي

كذلك فعلا، لأن أية حركة قومية يجب أن تكون لشعب. لكن، في حينه، قبل إقامة الدولة، فإن أغلبية اليهود، حتى لو اعتبرناهم شعبا على الرغم من وجود نقاش في هذا الشأن، لم تكن صهيونية، أي أنها لم تنخرط في الحركة الصهيونية. من جهة أخرى، فإن الحركة الصهيونية، وهي حركة علمانية، تستند إلى فكرة دينية، أي إلى «حق اليهود في أرض إسرائيل». على ضوء هاتين النقطتين، هل تعتقد أن الحركة الصهيونية تطورت بشكل طبيعي أم غير طبيعي؟

شتيرنهل: «هذا سؤال جيد جدا، وعموما جميع أسئلتكما جيدة. انبثقت الحركة الصهيونية من داخل المجتمع اليهودي من أجل حل ضائقة اليهود. ولهذا الغرض، ومن أجل حل مشكلة اليهود، كان ينبغي احتلال أرض يتمكن اليهود فيها من حكم أنفسهم. وهذه الحركة القومية استخدمت رموزا دينية، لكنها لم تكن حركة دينية. لقد استخدم مؤسسوها التوراة، لكن التوراة هي الإبداع الثقافي الأكبر لليهود، وحتى بدون الجانب الديني الذي فيها. وبالإمكان قراءة التوراة من دون الله. وعندما تعلمت التوراة في المدرسة لم يتحدثوا عن الله، على الرغم من أنه مكتوب فيها كلمات مثل يهوى والرب، لكن هذا لم يلعب دورا، وإنما كان هذا إبداعًا ثقافيًا. وقد استخدموا التوراة كأدب، كما استخدموا الأناشيد التوراتية، واستخدموها كمصدر تاريخي أيضا. وبالمناسبة، لقد دققوا فيها دائما على ضوء البحث الأثري اللغوي. وهذه الحركة القومية انبثقت بصورة طبيعية وعفوية من داخل الضائقة اليهودية. لولا الضائقة اليهودية لما كان هناك يهود في أوروبا الشرقية نشطوا من دون ارتباط مع [مؤسس الفكرة الصهيونية ثيودور] هرتسل، كما أنه ما كان هرتسل ولا الذين جاؤوا من بعده، سينشغلون باستقلال اليهود. وهناك نقطة أخرى ينبغي ذكرها. لو أن حركة التحرر ومنح اليهود حقوقا في أوروبا نجحت، لما كانت هناك حركة صهيونية أصلا. لكن حركة التحرر هذه فشلت. والأمر الذي أدهش هرتسل بشكل كبير، وقد تم إثبات ذلك في الأبحاث بصورة غير مرتبطة باليهود، هو كيف أنه في نهاية القرن التاسع عشر، وفي بلاد الثورة الفرنسية وحقوق الإنسان، وفي هذه البلاد العلمانية، تطورت حركة هائلة معادية للسامية. وقد تم تأليف كتب حول ذلك، من وجهة النظر الفرنسية الأوروبية، ومن دون أية صلة لذلك باليهود. والأشخاص الذين عايشوا هذا الواقع مثل هرتسل، الذي أقام في باريس عدة سنوات كصحافي، عايشوا هذا سابقا في فيينا، التي كانت فيها حركة معادية للسامية كبيرة للغاية. وقد علم هرتسل و[المفكر الصهيوني ماكس] نوردو وغيرهما من الذين أسسوا الصهيونية السياسية الغربية، أنه توجد حركة معادية للسامية كبيرة جدا، وارتكبت أعمال تنكيل واسعة باليهود، في فيينا وبودابست وغاليسيا، لكن أن تنشأ حركات كهذه في فرنسا وألمانيا، وخاصة في فرنسا، بلاد التنوير، فإن هذا يعني أنه توجد هنا مشكلة جذرية، صعبة، ولا يوجد لها سوى حل راديكالي. وأنتم تعرفون بالتأكيد قصة أوغندا وهنا وهناك [اقتراحات بإقامة دولة يهودية في أوغندا أو روسيا أو غيرها]... وفي نهاية المطاف أدرك هؤلاء أن ثمة معنى لأرض إسرائيل بالنسبة إلى الشعب اليهودي. هذه هي الحقيقة. هؤلاء اليهود العلمانيون، سواء في الغرب أو في الشرق، كانوا حقا يصلون نحو القدس. لكن لم يصلوا بالمفهوم الديني وإنما في قلوبهم. وكانوا بحاجة إلى هذه الأرض. كانت مهمة. وكانوا على قناعة بأن أوروبا على أبواب كارثة. وقصد بن غوريون ذلك عندما تحدث عن 'الجدار الحديدي الذي علينا هدمه'. لقد قصد احتلال البلاد وأن اليهود كانوا يعيشون في أوروبا فيما السيف مسلط على أعناقهم. وقد رأوا أن كارثة آخذة في التبلور، وأن مئات آلاف اليهود يهاجرون إلى أميركا. لقد خرج مليونا يهودي من أوروبا وهاجروا إلى أميركا، وذلك حتى إغلاق الحدود الأميركية أمامهم في العام ١٩٢٣ أو العام ١٩٢٤ . وقد رأى قادة الصهيونية أن أساس الوجود اليهودي [في أوروبا] قد انهار. ولم يفكر أحد في أسوأ أحلامه بحدوث ظاهرة مثل المحرقة. وحتى عندما بدأت، لم يصدقوا أن هذا ما سيحدث. لقد كان هذا وضعا كارثيا يحتاج إلى إيجاد حل له. وكان هذا الحل هو الحل الصهيوني. وهذا لم يكن حلا كولونياليا، إذ لم تكن أبدا هنا موارد طبيعية، وعلينا أن نخرج هذه الفكرة من رؤوسنا. لم تكن هناك نوايا لدى الحركة الصهيونية للسيطرة على العرب [الفلسطينيين]. وما يجب أن ننتبه له هو أن اليهود بنوا الييشوف إلى جانب العرب، وليس على حساب العرب. الحركة الصهيونية لم تعتزم السيطرة على العرب، وإنما كانت عازمة على أن تحتل أرض إسرائيل منهم. أية مساحة كانت تعتزم أن تحتل؟ هذه كانت مسألة مفتوحة...».

(*) سؤال: أنت تتحدث عن مراحل سبقت العام ١٩٤٨؟

شتيرنهل: «نعم، أتحدث عن مراحل سابقة. ولم يعط أحد إجابة بشأن حجم المساحة التي يجب احتلالها. وجاءت وفود لهذا الغرض... وبن غوريون بنفسه ترأس وفدا توجه إلى العريش من أجل الاطلاع على المكان. وقد نظروا إلى أرض إسرائيل بشكل عام. وكان بن غوريون في العام ١٩٣٨ شخصية مرموقة، وغالبية الحركة الصهيونية، وبضمن ذلك [زعيم التيار اليميني رئيف] جابوتينسكي، وافقت على خطة بيل، انطلاقا من مفهوم أن علينا أن نحصل على أساس ما، شيء ما يكون لنا، ويسمح

قصة الاشتراكية كلها لم تكن جادة، لأن الحركة الصهيونية لم تكن لتسمح لنفسها بإجراء تجارب اجتماعية، وتعين عليها أن تحافظ على وحدة البيشوف، والقول للمزارعين في البيارات، ولأولئك الذي جاؤوا من بولندا من أجل بناء بيت في تل أبيب: 'إننا نريدكم هنا وسوف نستغلكم'. إذن كان لهذه البراغماتية هذان الوجهان، من الناحيتين السياسية والقومية، وهما أن نأخذ ما يمكن أخذه، وعدم إجراء تغيير جذري في المبنى الاجتماعي.

بجلب يهود إلى هنا».

(*) سؤال: هناك من يدعي أن بن غوريون كان براغماتيا. وقد وجّه رسالة إلى نجله، عاموس، الذي انتقد موافقة الحركة الصهيونية على تلك الخطة. وكتب بن غوريون في هذه الرسالة: إن التملك مهم ليس فقط في حد ذاته، ولكن لأننا بواسطته نزيد من قوتنا، وكل زيادة في القوة تساعدنا على حيازة وتملك باقي الأرض. إن إنشاء دولة – حتى ولو كانت منقوصة وجزئية – يعتبر أقصى ما يمكن عمله لتعزيز قوتنا في المرحلة الراهنة، ويشكل رافعة قوية لجهودنا التاريخية لتحرير كامل الأرض.

شتيرنهل: «صحيح. ربما لم يوافق أحد في حينه على التقسيم. ولم يحارب أحد من أجل التقسيم كمبدأ. وقد اعتقد بن غوريون، وآخرون أيضا، أن هذا ما هو ممكن الحصول عليه الآن، وأن ما يمكن الحصول عليه ينبغي أخذه».

(*) سؤال: هل برأيك يكمن سر نجاح الحركة الصهيونية في أنها كانت براغماتية، وأنها تحايلت على ما كانت تتطلع إليه من غايات؟

شتيرنهل: «هذه البراغماتية أدت، من جهة، إلى أن تأخذ ما يمكن الحصول عليه، ومن الجهة الأخرى إلى عدم القيام بأي تجارب اجتماعية ثورية. وهذا كان سبب ادعائي بأن قصة الاشتراكية كلها لم تكن جادة، لأن الحركة الصهيونية لم تكن لتسمح لنفسها بإجراء تجارب اجتماعية. وتعين عليها أن تحافظ على وحدة البيشوف، والقول للمزارعين في البيارات، ولأولئك الذي جاؤوا من بولندا من أجل بناء بيت في تل أبيب: 'إننا نريدكم هنا وسوف نستغلكم'. إذن كان لهذه البراغماتية هذان الوجهان، من الناحيتين السياسية والقومية، وهما أن نأخذ ما يمكن أخذه، وعدم إجراء تغيير جذري في المبنى الاجتماعي. داخل هذا، فإن جزر الاشتراكية كانت أمرا رائعا، ألهب مخيلة كل من رآه، وهذا يشمل الفرنسيين في سورية، إذ أنهم جاؤوا للزيارة وشاهدوا الكيبوتسات، في غور الأردن ومرج بن عامر. وكان هذا المجتمع الشيوعي الوحيد الذي وُجد في أية فترة في التاريخ. لم يكن أبدا شيء أجمل من الكيبوتس. وقد كان جميلا إلى درجة أنه صمد على مدار جيلين. وقد انتهى مثلما انتهت أمور أخرى».

حرب ١٩٦٧ كانت أكبر كارثة حلت بنا

(*) سؤال: وأنت تعتبر أن حرب العام ١٩٦٧ شوشت بشكل جاد للغاية الحياة في إسرائيل.

شتيرنهل: «بنظري، كانت هذه الحرب كارثة. إن أكبر كارثة أنزلها الله علينا هي حرب الأيام الستة. وستجدان أشخاصا يقولون إنهم ينظرون إليها بصورة مغايرة. فقد كنا مستعدين لهذه الحرب بشكل أقل من استعدادنا لحرب يوم الغفران [في العام ١٩٧٣]. وكان تقويم الوضع حينها، من جانب إسحق رابين، رئيس هيئة أركان الجيش، أنه لن تنشب حرب في الشرق الأوسط قبل السبعينيات، لأن المصريين عالقون في اليمن وغير متفرغين للحرب. ونحن لم نكن جاهزين للحرب ولم نرغب فيها. غير أنها كانت نجاحا لم يتوقعه أحد في أكثر الأحلام وردية. مع ذلك، هذه الحرب هي كارثة. وأوجدت المشكلة التي لم ننجح في حلها حتى اليوم».

(*) سؤال: هل تعتقد أن إسرائيل، والحركة الصهيونية أيضا، أصبحتا استعماريتين، بعد العام ١٩٦٧؟

شتيرنهل: «ليس بشكل واعٍ. غير أن المستوطنات أوجدت حالة استعمارية. وفي إسرائيل لم يحاسبوا أنفسهم، على ما حدث في [مستوطنتي] ألون موريه وسبسطية وماذا فعل الحاخام ليفنغر في الخليل. لم يعرفوا كيف يتصرفون حيال هذا. لم تكن هناك طاقة فكرية وأخلاقية لمواجهة هذا الأمر. ولم تكن هناك قوة لكي يُقال للأشخاص الذين ذهبوا إلى سبسطية لماذا من المسموح الاستيطان في حنيتا [وهو كيبوتس قريب من الحدود بين إسرائيل ولبنان]، ولماذا يحظر الاستيطان في هضبة الجولان والسامرة. ما الفرق؟ لقد قلنا إنه تم الاستيطان

اليسار شريك في الواقع الكولونيالي في الأراضي المحتلة عام ٦٧.

في حنيتا لأن هذا كان ضروريا، بينما الاستيطان في هضبة الجولان والسامرة ليس ضروريا. وقد قال موشيه دايان أيضا، في مقابلة تم نشرها بعد موته في صحيفة يديعوت أحرونوت حسبما أذكر، إن القرار بالصعود إلى هضبة الجولان [للاستيطان] كان أكبر خطأ ارتكبه، وأن هذا تم تحت ضغوط مارستها البلدات والكيبوتسات في منطقة الجليل الأعلى. لقد أرادوا هذه الأرض. وما كان ينبغي قوله لهؤلاء الأشخاص هو أمر بسيط، مفاده أن ما كان جيدا وشرعيا وعادلا حتى العام ١٩٤٩، ليس جيدا ولا شرعيا ولا عادلا الآن. ولذلك ليس ثمة شيء نبحث عنه في الضفة الغربية وهضبة الجولان. وكان يجب التوصل إلى اتفاقيات حول مناطق منزوعة السلاح مع السوريين، وليس ثمة ما نفعله في الضفة الغربية. ويجب أن تقام هناك الدولة الفلسطينية التي لم تقم في العام ١٩٤٧، وإن بتأخير ٢٠ عاما».

تجاهل اليسار الصهيوني للقضية الفلسطينية دليل على إفلاسه

(*) سؤال: وجهت انتقادات شديدة إلى اليسار في إسرائيل في مقالاتك الأخيرة. هل يوجد في إسرائيل الآن يسار يستحق هذه الصفة؟

شتيرنهل: «فيما يتعلق باليسار، أنا أعتقد أن قرار [رئيسة حزب العمل] شيلي يحيموفيتش بتجاهل القضية الفلسطينية ومشكلة المناطق [المحتلة]، وتجاهلها لقضية السلام والحرب، والقول إن الموضوعين الاقتصادي والاجتماعي هما المهمان فقط، هو أمر غير صحيح من الناحية الفكرية ولا من الناحية السياسية. وأنا أرى بذلك إفلاسا مطلقا. وعمليا فإن اليسار الإسرائيلي الوحيد الذي بقي هو حزب ميرتس، حيث بقي مخلصا لطريق اليسار. الجبهة الديمقراطية للسلام والمساواة هي إشكالية وأنتما تعرفان السبب [لأنها غير صهيونية]. لكن في اليسار الصهيوني يوجد ميرتس الذي يرى أنه لا يوجد حل للمشكلة الاجتماعية من دون سلام. كذلك فإن الادعاء بأنه لا يوجد حل للصراع هو ادعاء غير صحيح ومستحيل، لأن اليسار لا يمكنه أن يوافق على نشوء وضع كولونيالي في المناطق. ولا يمكننا الموافقة على هذا الأمر بشكل مخالف لكافة مضامين مصطلح اليسار في العالم. حزب العمل تحرك نحو الوسط، بمعنى أن هذا ليس وسطا بالضبط، وإنما يمين. حزب العمل تحرك نحو الوسط – اليمين. وهذا ليس الحزب الاشتراكي الديمقراطي الوحيد في أوروبا، وهذا هو المجال الذي أعرفه، الذي دار فيه السجال حول ما إذا كان ينبغي التوجه نحو الوسط أو التمترس في مواقف اليسار. لكن هناك [في أوروبا الغربية] يدور الحديث على دول سعيدة ولا توجد فيها حروب، وإنما توجد لديها

مشكلات اقتصادية واجتماعية فقط. وهي مستعدة للتضحية بحياتها من أجل مشكلات كهذه. لكن القضية عندنا وجودية أكثر. أنا آخر من يستخف بقضايا العدالة والمساواة. والقضية الوجودية عندنا تتعلق بالسلام والحرب وهي مشكلة المناطق. ولا يمكن أن يتجاهل اليسار المناطق، لأن هذا الجرح المفتوح هو جرح أخلاقي وسياسي. إذ لا يمكن القول إنك تتجاهل حقيقة وجود ملايين الفلسطينيين وتتجاهل حقوقهم الإنسانية. هذا ليس يسارا. وفي اللحظة التي تتجاهل فيها الحقوق الإنسانية لأحد ما، وتحول ذلك إلى مسألة غير مهمة، فإنه لا يمكنك أن تكون في اليسار. هذه هي وجهة نظري. ولذا فإني أعتقد أن ما فعله حزب العمل هو أمر هدام. وأنا أعرف أن هناك أشخاصا لن يستمروا في الموافقة على ذلك لفترة طويلة. ولا يزال في حزب العمل أشخاص يدركون أن هذا التوجه هدام، وليس صحيحا من الناحيتين الأخلاقية والسياسية. ولهذا أنا لا أدفن حزب العمل. وفي هذه الأثناء فإنه موجود في وضع يحتاج إلى ترميم. حزب العمل يجب أن يعود إلى نفسه. قسم منه قد يذهب إلى اليمين وقسم آخر قد ينضم إلى ميرتس. وعندها سيكون هناك أمل بتشكيل حزب يساري أكبر وأكثر جدية وأقوى. اليهود الإسرائيليون هم أقل غباء مما يعتقد البعض. والغالبية تدرك المسألة، لكن الأغلبية، في العالم كله، لا تملك الشجاعة لقول هذه الأمور، والسير في الثلم يكون أسهل دائما، ولذلك تسير الأغلبية في إسرائيل في الثلم. لكنني أعتقد أن الإسرائيليين في معظمهم يدركون أنه من دون حل القضية الفلسطينية، لن يكون لنا مستقبل حقيقي هنا. ومستقبلنا هو في العيش مع الفلسطينيين، وإلى جانب الفلسطينيين، وبالتعاون مع الفلسطينيين، بهذا الشكل أو ذاك. ولذا فإنني أعارض دولة ثنائية القومية، لأني أعتقد أن هذا ليس حلا، وإنما حمام دماء. والشعوب ليست أبدية. ستختفي ذات مرة. إن الأمم بالمفهوم المعاصر بدأت في القرن السادس عشر وحتى الآن. قبل ذلك، عاش البشر من دون وجود للدول. والدولة القومية هي ظاهرة حديثة. وهي ليست ظاهرة طبيعية. كانت لها بداية وستكون لها نهاية أيضا. ونحن نعيش في هذه الفترة التي فيها الدولة القومية هي مصدر التضامن أو هوية البشر. وبالكاد ينجحون في أوروبا الغربية في التعامل مع هذا الأمر وهناك محاولات قليلة، لكن هذا الأمر ما زال في بداياته وحسب، وما زالت الطريق طويلة. وما زالوا بعيدين عن هذا الأمر في أوروبا الشرقية. هذا كل شيء فيما يتعلق باليسار، الذي عليه أن يتبنى مبادئ تجعله يستحق هذه التسمية فعلا».

(*) سؤال: ما هي وجهة إسرائيل الحالية؟ إلى أين تتجه في قراءتك؟

شتيرنهل: «سأجيب بما يلي: وجهتنا يجب أن تكون قبل أي شيء نحو السلام، وإقامة دولة فلسطينية، والعيش بسلام معها، ومع العالم العربي عموما. لكن، وهذا ما أريد أن يعرفه قراؤكم في الضفة الغربية والدول العربية، إن أشخاصا مثلي يرون أن هذا الأمر يجب ألا يسير في اتجاه واحد، أي أنه يجب أن يكون هناك تجاوب عربي. على العرب أن يفعلوا أمرين: أولا، الاعتراف بحقيقة وجود دولة إسرائيل وبشرعية هذه الحقيقة. ثانيًا، لزام على الفلسطينيين في المناطق أن يعبروا عن ذلك بالاعتراف بحقيقة أنهم لن يعودوا إلى الأماكن التي وُلد فيها آباؤهم وآباء آبائهم. لا إلى حيفا ولا إلى الرملة ولا إلى يافا. قبل عدة أعوام دُعيت من قبل مثقفين عرب في حيفا، لديهم ناد جميل في حي وادي النسناس. وهؤلاء مجموعة من أصحاب المهن الحرة وأساتذة الجامعات والصحافيين. وجميعهم يتحدثون العبرية مثلي إن لم يكن أفضل. وتحدثنا لساعات، واتفقنا على كل شيء تقريبا، باستثناء نقطة واحدة، هي حق العودة. قال لي أحدهم: 'ما تطلبه مني، عمليا، هو أن أقول لابن عمي الذي يسكن في مخيم للاجئين في لبنان، أنه لأن جدك كان أكثر ذكاء من جدي فإن عليه أن يبقى في بيته وأنا في بيتي. وأن جدك قرر الذهاب. وبسبب هذا الجد فإنه لن يعود إلى حيفا. هذا ما تريد أن أقوله لابن عمي'. وقد أجبته أن هذا هو بالضبط ما أريد أن يقوله إلى ابن عمه، لأن هذا هو الأمر العادل والمباشر الوحيد الذي بإمكانه أن يقوله له. وعليه الآن أن يأخذ كل ما تقدمه دولة إسرائيل والأسرة الدولية والدول العربية، التي والحمد لله لديها المال، مثل قطر والسعودية، لكن نحن الإسرائيليين أيضا يجب أن نمكنه من بناء حياته. يجب أن يأخذ تعويضات، وعليه أن يبني حياته، إما في الدول العربية وإما في مكان آخر، وإما في الضفة، حيث ستقوم الدولة الفلسطينية المستقلة. لكنه لن يعود إلى حيفا».

(*) سؤال: لماذا تريد أن تسلب منه هذا الحلم بالعودة؟

شتيرنهل: «لأن هذا الحلم هو مأساتنا. لو لم يكن لدى [الرئيس الفلسطيني الراحل ياسر] عرفات هذا الحلم، لكان قال لنا في فترة [مفاوضات] أوسلو: سنقيم دولة فلسطينية، وأنا ذاهب إلى مخيمات اللاجئين، وسأقول لهم: إخوتي وأخواتي، لقد انتهى الأمر. احتفظوا بمفتاح البيت، لكنكم لن تعودوا إلى حيفا والرملة. هذا ما يجب قوله للإسرائيليين، كي نتمكن نحن في اليسار من كمّ أفواه اليمين، لأنه دائما توجد أجوبة محرجة لدى اليمين. وأعتقد أن أبو مازن [الرئيس الفلسطيني محمود عباس]

قال هذا، وهو أمر بالغ الأهمية، عندما أكد أنه سيزور صفد فقط كسائح. لكن بعد أيام قليلة قالوا إنه تراجع عن أقواله. يبدو أنه تعرض لضغوط. أن تكون زعيما هو أمر صعب، وقد تخاطر بأن تُقتل. ورابين دفع حياته ثمنا. وهذا حدث في التاريخين الأوروبي والأميركي أيضا، فالرئيس أبراهام لينكولن دفع حياته ثمنا. وبن غوريون لم يكن بعيدا عن أن يطاله القتل، عدة مرات. وثمة حاجة إلى زعيم كبير قادر على قول الأمور الصعبة، وأن يقود وألا ينجرّ. وقد كان بإمكان عرفات القيام بذلك. وأنا كنت آمل بأن يفعل ذلك. ومثلما جاء [الرئيس المصري السابق أنور] السادات إلى القدس، كان بإمكان عرفات أن يأتي إلى الكنيست وأن يقول هذه الأمور، لو أراد ذلك. كان سيربح عالمه، ولربما كانت ستقام دولة فلسطينية، وينحصر النقاش فيما بيننا حول حصص الماء وخطوط الكهرباء وأمور كهذه. وإذا لم تفعل دولة إسرائيل هذا الأمر واستمرت في الاتجاه الذي تسير فيه الآن، ولم يفعل الفلسطينيون في الضفة شيئا بالغ الأهمية، فإننا سنستمر في هذا الوضع ونواصل تعميق الكارثة الحاصلة. وماذا سنبقي لأولادنا وأحفادنا؟».

(*) سؤال: قوة اليسار الإسرائيلي تراجعت بشكل كبير، بينما قوة اليمين ارتفعت بشكل هائل. هل توجد هنا، ربما، وأنت خبير كبير في هذا، مؤشرات على وجود فاشية في إسرائيل؟

شتيرنهل: «يوجد كل شيء. وتوجد مؤشرات على ذلك أيضا. لكن يجب أن نأخذ في الحسبان أن الانتخابات الأخيرة غيرت شيئا ما. لقد تم كبح اليمين المتشدد. وعدم توافق [رئيس حزب «يوجد مستقبل» يائير] لبيد مع حزب العمل، الذي لم يعد حزبا اشتراكيا ديمقراطيا، هو مشكلة أخرى. لكن هذا الاحتمال قائم. وتم نشر استطلاع، قبل الانتخابات، وبيّن أن ٧٣ بالمئة من الإسرائيليين يؤيدون إخلاء مستوطنين وقيام دولة فلسطينية. على الرغم من ذلك صوتوا لصالح حزب الليكود، وهذا تناقض. لكنهم يصوتون لليكود لأنهم يؤمنون بأنه لا توجد قيادة في الوسط – اليسار تكون قادرة على فعل شيء ما. هناك أزمة قيادة. لكن معظم الإسرائيليين، وعمليا نحو ثلاثة أرباع الإسرائيليين، ونتحدث هنا عن اليهود فقط، مستعدون لوضع نهاية للاحتلال. بكلمات أخرى يزداد عدد الأشخاص الذي يدركون أن الاحتلال هو كارثة، وأنه سرطان يأكل أجسادنا».

(*) سؤال: هل تعتقد أن رئيس الحكومة بنيامين نتنياهو شخصيا هو مشكلة أمام أي تسوية؟

شتيرنهل: «نتنياهو جزء من المشكلة، ولذا لا يشكل جزءا من الحل. ولا شك في أن الوضع سيكون أفضل لو أنه لم يكن على رأس الليكود شخص مثل نتنياهو، وإنما شخص آخر يحمل أفكارا كالتي يحملها دان مريدور. إن غالبية الإسرائيليين تريد إنهاء الاحتلال لكنها ليست مستعدة لحرب أهلية. وبالتالي يجب التوصل إلى حل يبقي الكتل الاستيطانية الكبرى تحت سيادة إسرائيل، وفي المقابل تحصل الدولة الفلسطينية على تعويض. ويجب أيضًا إخلاء المستوطنين من الخليل».